المجلة العالمية لبحوث القرآن
المجلد ٣، العدد (٤)، يونيو ٢٠١٣م، ص٢٥٥-٢٧٨

الصابئون في القرآن الكريم: دراسة تحليلية

ثابت أحمد أبو الحاج*
صديق عارفين**

"Alsabians" In the Holly Quran'an: Analytical Study

Thabet Ahmad Abu-Alhaj
Sedek Ariffin

ABSTRACT

This research deals with three verses which nearly are the same of each other. These verses are contained the word "Sabians ،"which came in three different places in the Qura'an. Firstly ،in Surat Al-Baqarah (والنصارى والصابئين)verse: 62. Secondly ،in Surat Al-Maida (والصابئون والنصارى)verse: 69. And thirdly it comes ،in Surat of Hajj (والصابئين والنصارى) verse: 17. This research addresses the word" ،Sabians ،" through different aspects: the fact of this community ،"Sabians" ،how the word came differently before and after the word Christians and the role of context and history to resolve this confusion especially how the word came in Surat "Al_Maida" different in the form. The research aims to discuss these issues to resolve the confusion by showing the exact meaning of the word" ،Sabians ،"and make the reader more understanding as well as showing the value and the miracle of this single Qur'anic word.

***Key words**: "Sabian, single Qur'anic word, context.*

* محاضر بقسم القرآن والحديث في أكاديمية الدراسات القرآنية بجامعة ملايا، كوالالمبور، ماليزيا: dr. thabethaj@yahoo. com

** محاضر بقسم القرآن والحديث في أكاديمية الدراسات القرآنية بجامعة ملايا، كوالالمبور، ماليزيا: sedek2001@um. edu. my

الملخص

يتناول هذا البحث ثلاث آيات متشابهات ورد فيهنّ لفظة "الصابئين"، وذلك في سورة البقرة: (والنصارى والصابئين) آية: ٦٢، وفي سورة المائدة: (والصابئون والنصارى) آية: ٦٩، وفي سورة الحج: (والصابئين والنصارى) آية: ١٧. ويعالج البحث هذه المفردة القرآنية من ثلاثة جوانب: حقيقة هذه الطائفة "الصائبين"، والتقديم والتأخير بين الآيات الكريمة، ودور السياق والتاريخ في حل هذا الإشكال، وكذلك الإعراب خاصةً الآية في سورة المائدة والتي جاءت بالرفع (الصابئون). ويهدف البحث إلى مناقشة هذه القضايا بالمنهج الموضوعي التحليلي، رفعاً للخلاف ودفعاً للشبهات، ووصولاً للفهم الأدق بإذن الله، كما ويهدف البحث كذلك إلى بيان قيمة المفردة القرآنية وإعجازها في كتاب الله. واقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة، فالمقدمة لعرض موضوع البحث وأهميته، وأهدافه، والدراسات السابقة، وخطته، والمبحث الأول لبيان معنى الصابئين وفرقهم وانتشارهم، والمبحث الثاني لبيان حكمة التقديم والتأخير في ذكر الفِرق في الآيات الكريمة، والمبحث الثالث لبيان إعراب الكلمة وأثرها في بيان التفسير، والخاتمة وفيها نتائج الدراسة.

الكلمات الدالة: الصابئون، المفردة القرآنية، السياق.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وبعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن آيات بينات واضحة الدلالات، وجعله حجةً على خلقه، وأمرهم بتدبره وفهمه وحسن العمل به، وصولاً للحق وتزكيةً للنفس، وطلباً لمرضاته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

ومع ذلك فقد تعرض للمفسر أو المشتغل في كتاب الله ألفاظ أو آيات يشكل فهمها، ولايظهر إلّا بعد جهد وعناء ومزيد تأمل، والاستعانة بأدوات التفسير كاللغة، والسياق والتاريخ، وغيرها، بما يحقق الفهم السليم لكتاب الله، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

أهمية البحث:

يتناول هذا البحث ثلاث آيات متشابهات -يرى في ظاهرهن اللبس والإشكال- وهنّ الآيات التي ورد فيها ذكر "الصابئين" والتي جاءت في ثلاث سورٍ من القرآن الكريم، وقد وقف المفسرون – قديماً وحديثاً- أمام هذه الآيات الكريمة، وتعددت آراؤهم فيها واختلفت، فكان لا بدَّ من عرض هذه القضايا ومناقشتها للوصول إلى الفهم الأدق بإذن الله.

مشكلة البحث والقضايا التي يعالجها: حقيقة هذه الطائفة "الصابئين"، والتقديم والتأخير: ففي سورة البقرة: ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ وفي سورتي المائدة: ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾، والحج ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾، وبيان دور السياق والتاريخ في حل هذا الإشكال، و**الإعراب:** حيث وقف المفسرون طويلاً أمام آية المائدة، لأن الكلمة فيها جاءت بالرفع (***وَالصَّابِئُونَ***) في حين جاءت منصوبة في آيتي البقرة والحج، وقد أكثر المفسرون وأهل الإعراب من الوجوه في سبب رفع (***وَالصَّابِئُونَ***) وجاءوا بأقوال

متكلفة، أبعدوها كثيراً عن المراد.

ويهدف هذا البحث إلى مناقشة هذه القضايا رفعاً للخلاف ودفعاً للشبهات، وبياناً لقيمة المفردة القرآنية وإعجازها في كتاب الله، على النحو الآتي: بيان حقيقة معنى الصابئين، وفرقهم وانتشارهم، ومناقشة الحكمة من التقديم والتأخير، وبيان أثر ذلك في التفسير، وبيان الراجح من إعراب هذه المفردة القرآنية، والمعنى المستفاد من ذلك.

الدراسات السابقة:

غالباً ما يعرض المفسرون لهذه المفردة القرآنية في ثنايا كتبهم، ومع ذلك لم نعثر إلّا على دراسة واحدة تناولت هذه المفردة القرآنية بالعناية والبحث بعنوان: (**دراسات في مشكل القرآن، تأويل ثلاث آيات متشابهات، آيات الصابئين**)للدكتور أحمد حسن فرحات ، طبع في دار عمار، عمان، الأردن ٢٠٠٠م، يقع الكتاب في٦٦ صفحة من القطع الصغير،ويحوي أربعة فصول، ويناقش المراد بالطوائف الثلاثة: "الذين هادوا" و"النصارى"و "الصابئين"، مع المقارنة بين الآيات التي ذكرت فيها هذه الفرق،من حيث السياق واللغة، وخلص الباحث إلى أنّ كل آية من الآيات الثلاث تختص بفترة زمنية معينة ،وأنّ أهل كل ملة هم على حق في زمن ملتهم ، طالما أنهم ملتزمون بما جاءهم به نبيهم ، وأن جميع الرسالات المنزلة من عند الله في ذلك سواء، وأنهم ملزمون بالإسلام بعد مجيئه ،وممّا لاشكّ فيه أن الكاتب أجاد في عرض الموضوع، مع الإسهاب في ذكر الأقوال الواردة في بحثه.

أمّا هذا البحث فهو يسلط الضوء على جانبٍ واحدٍ من الآيات الكريمة وهو فرقة "الصابئين"، والتي كانت مدار الخلاف بين المفسرين ، دون إسهاب ممل، أو اختصار مخل، في إطارها التاريخي،ومن خلال دراسة سياق الآيات، واللغة، والتاريخ، ويقدم صورة شاملة عن هذه الفرقة وتاريخها ومذاهبها ومواقع انتشارها، وأهم معتقداتها، بحيث يسير بالقارئ نحو الفهم السليم، والهدف المنشود، وذلك باتّباع المنهج التحليلي،الذي يتناول جميع الجزئيات حول هذه الفرقة ، وبذلك تتحقق الفائدة المرجوة بإذن الله.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن نجعله في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي: **الأول:** بيان حقيقة معنى الصابئين، وفرقهم، وانتشارهم، **والثاني:** مناقشة الحكمة من التقديم والتأخير بين الآيات الثلاث. و**الثالث:** مناقشة إعراب "الصابئين"في آياتها الثلاث، والمعنى المستفاد من ذلك. **ثم الخاتمة:** وفيها نتائج الدراسة.

سائلين الله عز وجل أن يُلهمنا السداد والرشاد، وأن يأخذ بناصيتنا إلى الحق والصواب، وأن يغفر لنا تقصيرنا، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول
حقيقة الصابئين وفرقهم وانتشارهم

أولا: حقيقة الصابئين

وقف المفسرون –قديماً وحديثاً– أمام هذه الآيات الكريمة، وتعددت آراؤهم فيها واختلفت، فكان لا بدَّ من عرض هذه الآراء ومناقشتها للوصول إلى أقرب فهمٍ لحقيقة هذه الطائفة وأيسره.

الآية الأولى: في سورة البقرة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

الآية الثانية: في سورة المائدة: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

الآية الثالثة: في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

معنى الصابئ في اللغة:

الصّابئ لغةً: "هي من قولهم: صبأ ناب البعير، إذا طلع. وقيل لكل خارجٍ من الدين إلى دين آخر "صابئ" أو من صبا يصبو من غير همزٍ بمعنى مال"[(١)]، وقال أبو جعفر الطبري والصابئون جمع صابئ، وهو المستحدث سوى دينه ديناً، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه، وكل خارجٍ من دين كان عليه إلى آخر غيره تسمية العرب صابئاً، يقال منه: صبا فلان يصبأ صبأ، ويقال صبأت النجوم: إذا طلعت، وصبأ علينا فلان موضوع كذا وكذا: يعني به طلع"[(٢)] .

حقيقة الصّابئين في اصطلاح العلماء :

أما المراد بهذه الطائفة فللمفسرين[(٣)] فيها أقوالٌ كثيرة – تكاد تكون مجتمعةً – أوجزها فيما يأتي:

١. أنهم قومٌ بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين.

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق ط٣، ١٤٢٣هـ، ص٤٧٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، نسخة منتمة لِـ محمود شاكر وأحمد شاكر دار السلام. القاهرة ط١، ١٤٢٥هـ، ١/٤٤٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري. ١/٤٤٤– ٤٤٥، والكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط، ٢ ٢٠٠١م، ١/١٤٦، وزاد المسير، ابن الجوزي، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ص٤٧، والتفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ، ١/٤٠٦، والجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي. ، دار الفكر، دمشق ١٤١٤هـ، ١/٤٠٦، وأنوار التنزيل، ناصر الدين البيضاوي. دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٠هـ، ١/٦٦، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي. دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ، ١/٤٠١– ٤٠٢، وتفسير القرآن العظيم، عماد الدين ابن كثير. دار الخير، بيروت ط٢، ١٤١٢هـ، ١/١١٠– ١١٣، وإرشاد العقل السليم، محمد بن محمد أبو السعود. دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٧٩هـ، ١/١٤١– ١٤٢.

٢. هم فرقةٌ من أهل الكتاب يقرأون الزبور.

٣. هم قومٌ مما يلي العراق، يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنةٍ ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.

٤. وقال الحسن البصري: هم قومٌ كالمجوس.

٥. هم قومٌ يعبدون الملائكة، ويقرأون الزبور ويصلون إلى القبلة.

٦. هم الذين يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعمل بها ولم يُحدثوا كفراً، قاله وهب بن منبه.

٧. هم أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله، قاله: عبد الرحمن بن زيد.

٨. هُمْ الذين لم تبلغهم دعوة نبي.

٩. هم قومٌ يعبدون الكواكب والنجوم.

١٠. هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسية، لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

والحقيقة أن العلماء كانوا يذكرون الأقوال وينسبونها دون ترجيح، أو تحقيق، إلا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عرض لتحقيق معنى "الصابئين" في كتابه "الرد على المنطقيين"، وقال كلاماً سديداً جمع فيه بين الأقوال، وبيّن أن المقصود بكل قول منها طائفة من الصابئين غير المقصودة بالقول الآخر. وأنّ من هذه الطوائف من هو من الحنفاء الموحدين، ومنها ما هو غير ذلك.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وأما من قال من السلف: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، كما نقل ذلك ابن أبي العالية، والضحاك، والسّدي، وجابر بن زيد، والربيع بن أنس، فهؤلاء أرادوا من دخل في دين أهل الكتاب منهم، وكذلك من

قال: هم صنفٌ من النصارى، وهم السائحون المحلقة أوساط رؤوسهم، فهؤلاء عُرف منهم من دخل في أهل الكتاب.

ومن قال: أنهم يعبدون الملائكة كما يروى عن الحسن أنه قال: هم قومٌ يعبدون الملائكة. وعن أبي جعفر الرازي قال: "بلغني: أن الصابئين قومٌ يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور ويصلون"، فهذا أيضاً صحيح. وهؤلاء كثير من الصابئين يعبدون الروحانيات العلوية، لكن هؤلاء من المشركين فهم ليسوا من الحنفاء. وكذلك اختلاف الفقهاء في الصابئين هل هم من أهل الكتاب أم لا؟

وقال: "... والذي عليه محققو الفقهاء أنهم صنفان: فمن دان بدين أهل الكتاب كان منهم. وإلا فلا". ثم قال: "... والذين خبروهم عرفوا أنهم ليسوا من أهل الكتاب، بل مشركون يعبدون الكواكب، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائُهم، وإن أظهروا الإيمان بالنبيين، فهو من جنس إيمان الفلاسفة بالنبيين، والفلاسفة الصابئون هم من هؤلاء... وأما قبول الجزية منهم فهو على خلاف المشهور. فمن قبلها من غير أهل الكتاب– كما يقبل من المجوس– قبلها من هؤلاء".

ثم عرض لطائفة الصابئين الحنفاء فقال: "وأما الصابئون الحنفاء فهم – في الصابئين– بمنزلة من كان متبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى، وهؤلاء ممن حمدهم الله وأثنى عليهم.

ومما يؤيد هذا الرأي ويدعّمه، أن الآية الكريمة ذكرتهم في معرض المدح والثناء،وفيها إشارةٌ إلى إيمانهم بالله واليوم الآخر، وعملهم الصالح مع الذين آمنوا واليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

واستشهد لذلك بما رواه ابن أبي هاشم بالإسناد الثابت أنه قيل لوهب بن منبه: ما الصابئون؟ قال: "الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً، وكذلك ما روي عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال: هم قومٌ من المجوس واليهود

والنصارى ليس لهم دين، قال وروي عن عطاء نحو ذلك: أي ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، ولم يرد بذلك أنهم كفار، فإن الله قد أثنى على بعضهم، فهم متمسكون بالإسلام المشترك، وهو عبادة الله وحده، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه، فإن هذا دخل في الإسلام العام الذي لا يقبل اللهُ ديناً غيره.

ثم ختم بقوله... وأظهر الأقوال –والله أعلم– قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: إنهم قومٌ ليسوا على دين اليهود ولا النصارى، ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قومٌ باقون على فطرتهم، ولا دين مقررٌ لهم يتبعونه ويقتفونه... "[(١)] انتهى كلام ابن تيمية.

وهذا الترجيح ذهب إليه ابن كثير مؤيداً فيه شيخه ابن تيمية[(٢)].

ثانياً: فرق الصابئة وانتشارهم

وكما كان لعلماء التفسير وجهة نظرهم في حقيقة الصابئين وفرقهم،فإن علماء التاريخ والملل والنحل وبعض العلماء المعاصرين يروا أنهم لم يكونوا طائفة واحدة، ولم يجمعهم مذهب واحد، ولم تؤلف بينهم تعاليم وشعائر معينة،و يكادون يجمعون على أنهم فرقتان:

الفرقة الأولى:هم الذين عُرفوا في الفكر الإسلامي باسم: الحرانية.

وقد نبه البيروني إلى أن هؤلاء –الصابئة الحرانية– ليسوا هم الصابئة على وجه الحقيقة، وأنهم تسموا بالصابئة في عهد الدولة العباسية (سنة ٢٨٨هـ) ليعدوا في جملة من تؤخذ منه الجزية وترعى له الذمة، وكانوا قبلها يسمون بالحنفاء والحرانية.

ويوضح الأستاذ إسماعيل مظهر ذلك بقوله: "إنهم تسموا بهذا الاسم في زمن الخليفة العباسي عندما مر بحران ليحارب إمبراطور بيزنطة، فاطلع على أحوالهم، ووقف على

(١) الرد على المنطقيين، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية. دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م، ص٤٥٤، ٤٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير. ١/١١١.

حقيقة ديانتهم فطلب منهم أن يعتنقوا ديناً من الأديان قبل أن يعود من الحرب، فدلهم بعض الدهاة –بعد أن دفعوا له الأموال– على أن يتسموا بالصابئة، وهي من الأديان المذكورة في القرآن"[١].

وتعرض المفسرون لذكر عقائد هذه الطائفة، فقد قال الإمام الرازي في تفسيره بعد أن أورد الآراء التي قيلت فيهم: "و لهم قولان، الأول: إن خالق العالم هو الله سبحانه، إلا أنه أمر بتعظيم هذه الكواكب...! واتخاذها قبلة للدعاء والصلاة.

والثاني: إن الله سبحانه خلق الكواكب –وهي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض– فعلى البشر تعظيمها، وهذا المذهب هو المنسوب إلى الكلدانيين الذين بعث الله فيهم إبراهيم ﷺ راداً عليهم، ومبطلاً لقولهم[٢]. وقال النيسابوري في تفسيره: "وكانوا أي الصابئة يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور[٣].

وقال الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة في مقدمة كتابه رسائل الكندي الفلسفية ما نصه: "ومن الجائز أن يكون هؤلاء الصابئة أتباع ديانة قديمة قد اختلطت بالفلسفة، ولعل نحلتهم توحيد قديم يرجع إلى إبراهيم ﷺ عادت إليه بعض التصورات البابلية القديمة وبعض مظاهر الوثنية التي حاربها إبراهيم ﷺ ثم تغذت بعد فتح الإسكندر للشرق بعناصر فلسفية يونانية"[٤].

وكانت الصابئة الحرانية تسكن شمال العراق، ومركزهم الكبر في حران، وهي مدينة قديمة جداً، وتقع في شمالي الجزيرة قرب منابع نهر البلخ أحد روافد الفرات، واشتهرت –حران– بأنها كانت مقراً لعبادة القمر (سن) وظلت كذلك حتى بعد إن انهارت دولة الكلدانيين ودولة الفرس[٥].

---

[١] تاريخ الفكر العربي: إسماعيل مظهر، دار الغرب، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٦٩.

[٢] الوحدانية: د. بركات عبد الفتاح دويدار، دار المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٨.

[٣] تفسير النيسابوري، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م، ٣١٢/١، ٣٤٣

[٤] رسائل الكندي الفلسفية: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار االغرب، ط٢، ١٩٩٧م، ص٤١.

[٥] دائرة المعارف الإسلامية مجلة ٩٠/١٤.

الفرقة الثانية: الصابئة المندائيون أو المنديون

وهم الذين تخلفوا ببابل من أسرى بابل الذين سباهم، نبوخذ نصر إليها من بيت المقدس بعد تدميره هيكل سليمان، وقد اعتادوا العيش في أرض بابل، فآثروا البقاء بها، ولم يرجعوا مع السبي العائد الى بيت المقدس، بعد أن حررهم قورش الفارسي من الأسر، فسمعوا أقاويل ومعتقدات المجوس وصبوا إلى بعضها،

فأصبح مذهبهم مزيجاً من المجوسية واليهودية والنصرانية، وانتشروا في بلاد الرافدين، إلا أن المستشرقة الإنجليزية الليدي دراوور قالت: "يوجد قدر لابأس به من الروايات ما يشير إلى أن لدى الصابئة الحرانيين ما يشتركون به مع الصابئة المندائيين الحقيقيين، وأن المثقفين منهم في البلاط العباسي، قد اختاروا ادعاء التعابير الفلسفية الأفلاطونية الحديثة (وهي فلسفة تصوفية نشأت في عصر انحطاط الامبراطورية الرومانية) حين كانوا يتحدثون عن دينهم لإضفاء جو من العلمانية والفلسفة على مذهبهم، وكانت المجوسية لاتزال حية وكريهة، فكان يجب تجنب أي تغييرات أو أية علاقة مع المعتقدات الفارسية إن وجود اسم زهرون (إبراهيم زهرون) من بين أسماء فلاسفة البلاط العباسي، يمكن أن يكون دليلا على صلة –الصابئة الحرانيين– بالصابئين المندائيين، فزهرون هو: أحد ملائكة النور لدى المندائيين، وكان من السهل عليهم تحوير لفظ (هرموز) أو (هرمز) أهورا مازدا (أي: أهريمان ويزدان إله النور والظلمة عند المجوس) إلى لفظ (هيرمس) أو (هرمس) وإلى أن يذيعوا بأن هرمس المصري كان أحد أنبيائهم[١].

وذكرت كتب المقالات والفرق كثيراً من عقائدهم التي لا العلم بها ينفع ولا الجهل بها يضر[٢]، وقد أثرت الصابئة المندائية في الطائفة الإسماعيلية...! مما يدل على أن الفرق المنحرفة شبكة متصلة يمهد السابق للاحق ليستمر التخريب...! بل يرى المقدسي بأن

---

[١] الصابئة المندانيون، الليدى دارور، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م، ص ٢٥، ٢٦.

[٢] انظر: الملل والنحل للشهرستاني، طبعة لبنان، ١٩٧٥م، ٢/٩٥، ١٤٦.

حمدان الأشعث الملقب بقرمط –زعيم القرامطة الأسماعيليين– كان صابئيا مندائياً. . !"[1].

ويرى الدكتور عبد المنعم الحفني: أن "الصائبة من باطنية اليهود، وينكر مؤرخو اليهود يهوديتهم على أساس أنهم ثنوية، (أي: يقولون بإلهين) والخالق عندهم اسمه: الله... بصيغته العربية، وهو نورالسموات والأرض، فاضت منه المخلوقات... وقيل: أنهم من نصارى اليهود وكتابهم السفر الكبير (كنزة ربة) يطرح نظرية في الخلق كنظرية سفر التكوين، وهم ينوهون بيوحنا المعمدان، ويسمونه "يحيى" لأنه من الزاهدين المغتسلين، وتشبه شعائرهم في الصلاة شعائر اليهود، وتنتشر هذه الطائفة في: الكوت، والعمارة، والناصرية، وواسط، وبغداد، وفي الأهواز على شاطئ نهر كارون في إيران، ويسمونهم العامة بالصبّة... ويحتكرون الأعمال المتعلقة بالمشغولات والمسكوكات الفضية والذهبية، وكان معظم الصاغة في أسواق الكويت منهم!! ومن أبرز رجالهم في العصر الحديث: الدكتور عبد الجبار عبد الله عالم الفيزياء الشهير ورئيس جامعة بغداد سابقاً، والشاعر العراقي: عبد الرزاق عبد الواحد، وكان يرأس الطائفة المدعو: عبد الله الشيخ نجم... !؟"[2].

الانتشار ومواقع النفوذ[3]:

الصابئة المندائيون الحاليون ينتشرون على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات، ويسكنون في منطقة الأهواز وشط العرب، ويكثرون في مدن العمارة والناصرية والبصرة

---

[1] البدء والتاريخ، للمقدسي ٢/٩٨.

[2] الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية: د. عبد المنعم الحفني، المكتبة العصرية، ١٩٨٧م، ص ٢٢٣

[3] انظر بتصرف: الصابئة المندائيون، الليدي دراوور، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م، ص٣٠، ٤٠، ومندائي أو الصابئة الأقدمون، عبد الحميد عبادة، طبع في بغداد، ١٩٢٧م، ص٢٠، ٢٩. والصابئة في حاضرهم وماضيهم، عبد الرزاق الحسني، طبعة لبنان، ١٩٧٠م، ص٣٠، ٤١. والكنزاربّا، وهو كتاب الصابئة الكبير ومنه نسخة في خزانة المتحف العراقي. والملل والنحل، للشهرستاني، طبعة لبنان، ١٩٧٥م، ٢/١١٠، ١٤٦.

وقلعة صالح والحلفاية والزكية وسوق الشيوخ والقرنة وهي موضع اقتران دجلة بالفرات، وهم موزعون على عدد من الألوية مثل لواء بغداد، والحلة، والديوانية والكوت وكركوك والموصل جنوب العراق، كما يوجد أعداد مختلفة منهم في نهر صالح والجبابيش والسليمانية في كردستان العراق، كذلك ينتشرون في إيران، وتحديداً على ضفاف نهر الكارون والدز ويسكنون في مدن إيران الساحلية، كالمحمرة، وناصرية الأهواز وششتر ودزبول جنوب غرب إيران.

وقد تهدمت معابدهم في العراق، ولم يبق لهم إلا معبدان في قلعة صالح، وقد بنوا معبداً منديا بجوار المصافي في بغداد، وذلك لكثرة الصابئين النازحين إلى هناك من أجل العمل.

ويعمل معظمهم في صياغة معدن الفضة لتزيين الحلي والأواني والساعات، وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم لأنهم يحرصون على حفظ أسرارهما، كما يجيدون صناعة القوارب الخشبية والحدادة وصناعة الخناجر، ولعل مهاراتهم في صياغة الفضة دفعتهم إلى الرحيل للعمل في بيروت ودمشق والإسكندرية، ووصل بعضهم إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا واستراليا وكندا. وهم يتقربون إلى أصحاب الديانات الأخرى بنقاط التشابه الموجودة بينهم وبين الآخرين.

المبحث الثاني
حكمة التقديم والتأخير في ذكر الفِرق

الناظر في الآيات الكريمة يرى أن طائفة الصابئين في آيتي المائدة والحج تقدمت على طائفة النصارى، بينما تأخرت على طائفة النصارى في سورة البقرة.

وهذا الاختلاف بين الآيات لفت أنظار العلماء قديماً، وتساءلوا عن وجه الحكمة في ذلك، كما أشار إلى ذلك الخطيب الإسكافي بقوله: "للسائل أن يسأل: هل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الفرق وتأخيرها ورفع "الصابئين" في آية ونصبها في أخرى غرض يقتضي ذلك؟ فالجواب أن يقال: إذا أورد الحكيم -تقدست أسماؤه- آيةً على

لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضعٍ آخر، فلا بد من حكمة هناك تُطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك بل جهلتم"[(١)].

وسنحاول استعراض آراء بعض العلماء الذين عرضوا لبيان الحكمة من اختلاف الترتيب بين الآيات:

قال الزمخشري رحمه الله: "... فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصابئين بين هؤلاء المعدودين ضلالاً، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها"[(٢)].

ويرى الخطيب الإسكافي أن الترتيب في آية البقرة على حسب ترتيب تنزل الكتب، وأما في آية المائدة فإنه يرى أن الترتيب فيها ترتيب الأزمنة لفظاً، وعلى حسب تنزل الكتب نيةً وحقيقةً، وفي ذلك يقول: "فترتيبهم في سورة المائدة، وتقديم الصابئين على النصارى، ورفعهُ هنا ونصبهُ هناك، ترتيبٌ ثان، فالأول على ترتيب الكتب، والثاني على الأزمنة، لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين على النصارى لإنهم لا كتاب لهم، فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم، لإنهم كانوا قبل عيسى ﷺ، فرفع الصابئون ونوى به التأخير عن مكانه، كأنه قال بعدما أتي بخبر: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون هذا حالهم أيضاً، وهذا مذهب سيبويه، لإنه لا يجوز عنده ولا عند البصريين وكثيرٌ من الكوفيين أن زيداً وعمراً قائمان... وهذه الآية تدل عليه لإنه قدم فيها الصابئون، والنية بها التأخير على مذهب سيبويه، وإنما قدم في اللفظ وأخّر في النية، لإن التقدم الحقيقي التقدم بكتبه المنزلة على الأنبياء –عليهم السلام– فلذا فعل ذلك في الآية الأولى، وكأن ههنا تقدمٌ آخر بتقدم الزمان. ولما جاءت آية أخرى قدّم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل،

(١) درة التنزيل، الخطيب الإسكافي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ١٩٩٦م، ص٢٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٦٩٤/١ عند تفسير آية المائدة: ٦٩، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ابن الزملكاني، دار الفكر، دمشق ١٤١٤هـ، ص٢٣٢.

ثم أقيمت في اللفظة إمارةٌ تدل على تأخره عن مكانه كان ذلك دليلاً على أن هذا الترتيب ترتيبٌ بالأزمنة وإن نية التأخير والترتيب بالكتب المنزلة"[١].

وإذا كان هذا الذي ذكروه في تقليل ترتيب المائدة صحيحاً ومقبولاً، فإن السؤال الذي يطرح نفسه وينتظر إجابته هو: لماذا لم تأتِ آية البقرة على نفس ترتيب آية المائدة لتحقق ذلك المعنى؟ وما الحكمة من تأخير الصابئين في آية البقرة؟ وهو ما حاول ابن الزبير الغرناطي الإجابة عليه مضيفاً تعليلاً آخر ومتمماً الفائدة.

فقال ما خلاصته: "إن ترتيب ذكر الفرق في سورة البقرة كان بحسب حالهم الدنيوي، فقد جاء ذكر اليهود قبل النصارى لإنهم أسبق منهم، وجاء ذكر اليهود والنصارى قبل الصابئين لإنهم أهل كتاب، غير أن هذا الترتيب كان بمجرد الذكر ولم يتأكد بحرفٍ مرتب، لإن الواو بمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب. وعدم تأكيد هذا الترتيب بالحرف المرتب، إنما كان لحظاً لحالهم الآخروي حيث لا ترتيب هناك، لإن المؤمنين من الجميع موافون في الجنة على مراتبهم.

ومما يؤكد هذا المعنى تقديم الصابئين في سورة المائدة، حيث يشير هذا التقديم إلى عدم اعتبار الترتيب لحظاً لحالهم الأخروي، ومما يؤكد ذلك أيضاً، مجيء "الصابئون" بالرفع، وأنها مقدمة من تأخير كما هو رأي سيبويه، أي: والصابئون كذلك، أي لا فرق بين الكل في الحكم الآخروي"[٢].

وللسائل أن يقول: هل في اختلاف هذه الآيات بتقديم (الصَّابِئُونَ) ورفعها في آية المائدة ونصب (الصَّابِئِينَ) وتأخيرها في آيتي البقرة والحج غرض يقتضي ذلك. . ؟ فنقول: نعم هناك أغراض كثيرة ذكرها المفسرون منها:

أولاً: أن ترتيب الطواف المذكورة في آية البقرة يراد منه: الترتيب الرتبي.

أي: أنها ذكرت الأمثل والأسبق إلى أن وصلت لمن ليس له كتاب... و لا مراء في أن هذا السلم الرتبي يقف (المؤمنون) بالكتب المنزلة السابقة (كصحف إبراهيم وغيرها)

---

(١)انظر: درة التنزيل، الخطيب الإسكافي. ص٢١، ٢٢

(٢) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي. دار الخير، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م، ١/٢٢٠، ٢٢١.

على أعلى درجاته، ثم يليهم (اليهود) لتقدم نبيهم وسبق زمانهم ثم (النصارى) لتأخر نبيهم و زمانهم.

وأما (الصابئون): فيقفون على أدنى درجات هذا السلم لكثرة مخالفاتهم ولما أحدثوه في مذهبهم من بدع وخرافات، علاوة على أنهم ليسوا أهل كتاب منزل، لذلك تقدم ذكر النصارى على الصابئين لأن النصارى أهل كتاب، فمرتبتهم متقدمة على الصابئين الذين لا كتاب لهم.

وأخّر الذين أشركوا في الذكر في هذه الآية: لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء، إلا أنهم لما كانوا أكثرية في عهد الرسول ﷺ اعتبروا من أهل زمانه، و بذلك يكون زمنهم متأخر عن زمن من سبقهم فأخر ذكرهم وقدم ذكر الصابئين على النصارى لأن زمنهم أسبق من زمن النصارى.

والترتيب في آية سورة المائدة: كان لغرض تريد التنبيه عليه، فقد ورد لفظ (الصابئين) منصوباً بالياء في آيتي (البقرة والحج) عطفاً على محل اسم إن، بينما ورد اللفظ نفسه مرفوعا (الصابئون) بالقطع عما قبله في آية (المائدة) و التغيير في الحكم الإعرابي عن طريق (القطع) لا يعد فصيحا إلا إذا كان هذا التغيير لهدف يراد التنبيه عليه كما أسلفنا.

وزاد القطع إلى (الرفع في الصابئون) الحكم توكيدا، فيكون الصابئون مرفوعا على الابتداء والخبر محذوفا ويكون تقدير الكلام: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الاخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون... والصابئون كذلك). قال في تفسير المنار: "ولما كان هذا... أي: إشراك الصابئين مع اليهود والنصارى في الحكم غير معروف عند المخاطبين في هذه الآية، وكان الصابئون غير مظنة لإشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السماوية، حسن في شرع البلاغة أن ينبه على ذلك بتغيير نسق الإعراب"[(١)].

[(١)] تفسير القرآن الحكيم (المنار) محمد رشيد رضا، دا المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ١١٣/٢.

ثانياً: إن سياق كل آية من الآيات الثلاث مختلف عن سياق الأخرى. فالمخاطب بآية (البقرة) هم اليهود... لأن أكثر من نصف سورة البقرة يتحدث عنهم وسورة البقرة كما هو معلوم أول ما نزل من القرآن بالمدينة، واهتمامها بهذه الطائفة من الناس يرجع:

أولاً: لسكناهم الى جوار الدولة الإسلامية الوليدة.

وثانياً: إلى بروز شوكتهم و حقدهم، فجاءت الآية في ثنايا مقطع قرآني يتناول بالذكر ما حل باليهود من ذلة ومسكنة، وما نزل بهم من غضب ونقمة يستحقونها، فقال سبحانه في الآية السابقة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وهذا السياق يوحي باليأس ويغري بالقنوط من رحمة الله، ولربما توهم الخلف ضياع إيمان أسلافهم وأن السماء على عداوة مع جنسهم، فجاءت آية البقرة لتدفع عن نفوسهم هذا الظن السيئ بالله، ولترفع هذا الوهم الخاطىء، ولتبين رحمة الله بعباده مهما كانت أجناسهم، فهو سبحانه لايؤاخذهم بسبب الجنس والنسب، وإنما يؤاخذهم على تركهم العقيدة الصحيحة، فالمناسب في هذا المقام ترتيب تلك الطوائف الأربعة ترتيباً رتيبا -كما أسلفنا- يقف على أعلى درجاته المؤمنون ويقف في أدنى درجاته الصابئون، لأنهم لا كتاب لهم منزل كما للطائفتين الموجودتين من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وقت نزول القرآن.

وسياق آية المائدة: ينعى على أهل الكتاب من يهود ونصارى عدم حكمهم بما أنزل الله بل يغربهم السياق في آيات عديدة إلى قبول الإسلام فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥]، ثم جاءت آية المائدة المتحدث عنها لتبين أن (الصابئون) مع ميلهم عن الأديان يتاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فلا شك أن أهل الكتاب أولى بالتوبة منهم إذا صح منهم الإيمان.

أما سورة الحج: فجاءت في سياق سورة يمتاز أسلوبها في مجموعه بالقوة والشدة والإنذار والتحذير وغرس التقوى في القلوب بأسلوب تخشع له القلوب، وتستعرض مشاهد الكون ومشاهد القيامة ومصارع الغابرين، فرتبت الآية الطوائف المذكورة ترتيباً زمنياً، وبينت أن من يؤمن إيماناً صادقاً يناله الثواب، ومن يكفر ينزل به العقاب وهناك أغراض وفوائد أخرى يلمسها المتدبر للآيات والقارئ لما كتبه أسلافنا من المفسرين. ومن كل ما سلف نستنتج أن (الصابئين) ليسوا أهل كتاب، وتوحيدهم المزعوم إن وجد من قبيل توحيد إخناتون الذي وحّد قومه على عبادة الشمس.

والحقيقة أن الكلام في ترتيب ذكر الفرق في آية المائدة مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بإعراب "الصابئون" ومن ثم اعتبرها الخليل وسيبويه ونحاة البصرة مقدمة من تأخير، وكما رأينا فيما ذكرته من حكمة الترتيب عند الخطيب الإسكافي، وعند ابن الزبير الغرناطي، وأنهما تابعا في ذلك رأي سيبويه.

وقد اقتضى هذا الأمر إفراد هذه المسألة بمبحث خاص للوقوف على وجوه الإعراب والراجح في المسألة.

المبحث الثالث

إعراب "الصابئون"

اختلف أهل العربية في تفسير رفع "الصابئون" وهذا مجمل أقوالهم في المسألة:

الوجه الأول: رأي العلماء الكوفيين

١- يرى الفرّاء أن "الصابئون": عطف على الذين و"الذين" حرفٌ على جهةٍ واحدة في رفعه ونصبه وخفضهِ، فلما كان إعرابه واحداً، وكان نصب "إن" نصباً ضعيفاً -وضعفهُ أنه يقع على الاسم ولا يقع على خبره- جاز رفع "الصائبين" ولا أستحب أن أقول: "إن عبدالله وزيداً قائمان" لتبين الإعراب في "عبدالله" وقد كان الكسائي يجيزه لضعف "إن"[(١)]. وردّ هذا الوجه أبو إسحاق الزجاج بقوله: "وهذا التفسير إقدامٌ عظيم

(١) معاني القرآن، الفراء. دار إحياء التراث، بيروت ط٢، ١٤٢٢هـ، ١٠/٣١٠، ٣١١.

على كتاب الله، وذلك أنهم زعموا أن نصب "إن" ضعيف. لإنها انما تغير الاسم ولا تغير الخبر وهذا غلط، لإن "إنّ" عملت عملين النصب والرفع، وليس في العربية ناصب ليس معهُ مرفوع، لإن كل منصوب مشبه بالمفعول، والمفعول لا يكون بغير فاعل إلا فيما لم يسمَّ فاعله، وكيف يكون نصب "إن" ضعيفاً وهي تتخطى الظروف فتنصب ما بعدها نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، ونصب إنّ من أقوى المنصوبات..."[(١)].

٢- أن "الصابئون" معطوف على الضمير المرفوع في "هادوا" ونقل الفرّاء هذا عن الكسائي، وقال: "قال الكسائي: رفع "الصابئون" على اتباعه الاسم الذي في "هادوا" ويقول الفراء ويجعله من قولك: "إنا هدنا إليك" لا من اليهودية، وجاء التفسير بغير ذلك، لإنه وصف الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ثم ذكر اليهود والنصارى فقال: من آمن منهم فلهُ كذا، فجعلهم يهوداً ونصارى" [(٢)] وذلك لإنه يوجب أن يكون الصابئون والنصارى يهوداً، وأيضاً فإن العطف على الضمير المرفوع قبل أن يؤكد، أو يفصل بينهما بما يقوم مقام التأكيد قبيح عند بعض النحويين[(٣)].

٣- "الصابئون" معطوف على محل اسم "إن"؛ فالحروف الناسخة، إن وأخواتها تدخل على الجملة الاسمية المكونة من مبتدأ وخبر، واسم إن محله الأصلي، قبل دخول إن عليه الرفع لأنه مبتدأ، ومن هنا رفعت "الصابئون" باعتبار أنها معطوفة على محل اسم إن، كقولك: إن زيداً كريم ومحمدُ... فإنك تعطف (محمدُ) على المبتدأ المكون من إن واسمها وهذا هو مذهب الكوفيين[(٤)].

الوجه الثاني:

أن "الصابئون" مرفوع على العطف على موضع "إن" وما عملت فيه، وخبر "إن"

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج. المكتب الإسلامي، بيروت ط٢، ١٤٠٤هـ، ٢١٢/٢، ٢١٤.

(٢) معاني القرآن، الفراء. ٣١٢/١.

(٣) مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب. دار الكتب العلمية، بيروت ط٢٢، ١٤٢٠هـ، ٢٣٣/١.

(٤) انظر: أوضح المسالك، لابن هشام، مع شرح محيي الدين، ٣٥٢/١، ٣٦٦

منويٌّ قبل "الصابئين" فلذلك جاز العطف على الموضع، والخبر: هو: "من آمن" يُنوى به التقديم، فحق "والصابئون والنصارى" أن يقعا بعد "يحزنون"، وإنما أصبح إلى هذا التقدير، لإن العطف في "إنّ" على الموضوع لا يجوز إلا بعد تمام الكلام" وانقضاء اسم "إن" وخبرها فينعطف على موضع الجملة[١].

الوجه الثالث:

قيل: إنما رفع لأنه جاء على لغة بلحارث الذين يقولون: رأيت الزيدان –بالألف– وقيل: "إن" بمعنى نعم... وقد رد أبو حيان كونها بمعنى نعم قائلاً: هذا ضعيف، لأن ثبوت "إن" بمعنى "نعم" فيه خلاف بين النحويين، وعلى أقل تقدير ثبوت ذلك من لسان العرب، فتحتاج إلى شيء يتقدمها تكون تصديقاً له، ولا تجيء ابتدائية أول الكلام من غير أن تكون جواباً لكلام سابق"[٢].

الوجه الرابع:

ذهب الأخفش والمبرد إلى أن: خبر "أن" محذوف مضمر دل عليه الثاني فالعطف بـ "الصابئين" إنما أتى بعد تمام الكلام وانقضاء اسم "إن" وخبرها، وإليه ذهب الأخفش والمبرد[٣].

الوجه الخامس:

ذهب الخليل وسيبويه والبصريون أن (الصابئون) مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: والصابئون والنصارى كذلك، قال الخليل وسيبويه: "الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك"[٤].

هذا مجمل للوجوه التي ذكرها النحويين في إعراب "الصابئون" فبعضها ضَعُفَ، وبعضها انطوى على تكلف وتعسف، **أما الراجح في المسألة والمتفق مع السياق**

---

(١) مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب. ٢٣٣/١.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي. ٥٤١/٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري. ٦٩٥/١، وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي. ٢٧٦/١، ٢٧٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ٦٩٨/١. أنوار التنزيل، البيضاوي. ٢٧٨/١، ٢٩٠.

كما أسلفنا:

الأول: ما ذهب إليه بعض العلماء الكوفيين من أن "الصابئون" معطوف على محل اسم "إن"، لأنه مبتدأ قبل دخول إن عليه.

الثاني: ما ذهب إليه الأخفش والمبرد من أن خبر "إن" محذوف مضمر دل عليه الثاني، وأن عطف "الصابئون" أتى بعد تمام الكلام وانقضاء اسم "إن" وخبرها وهذا الوجه هو أبعد الأقوال المذكورة عن التكلف، وأقربها مراعاة للنظم، وأرجحها في المعنى، ولا يرد عليه ما أورده على غيره من إشكالات.

الثالث: ما ذهب إليه كثيرٌ من النحويين من ترجيح رأي سيبويه والبصريين وهو أن خبر الثاني هو المحذوف وخبر "إن" هو الذي في آخر الكلام.

فتقدير الكلام على الأول: أن "الصابئون" معطوفة على "الذين آمنوا"، وكلا الفريقين من آمن منهم بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعلى الثاني: إن الذين آمنوا –وهم أمة محمد ﷺ– لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهذا هو المحذوف المضمر، والذين آمنوا من اليهود والصائبين والنصارى، أي: دخلوا الإسلام وعملوا بشرائعه فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

وعلى الثالث: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى هذا حالهم أيضاً وهذا تقدير الخبر الثاني المحذوف.

الخاتمة

وتشمل أهم النتائج التي خلص إليها البحث:

- أنّ آية سورة البقرة تتحدث عن الفِرق الثلاث ومصيرها قبل بعثة النبي ﷺ، ومن ثم كان مصير أهل هذه المِلل كمصير المؤمنين بنبوة محمد ﷺ، لإن أهلها كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر عاملين بمقتضى شرائعهم المنزلة عليهم، ولم يحرفوا دينهم أو يغيروه.

- أمّا آية المائدة فإنها تختص بعصر ما بعد الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ وإلى قيام الساعة، إشعاراً بأنه بعد مجيء الإسلام لن يقبل غيره، وأن الأصل في النجاة يوم القيامة لمن آمن به فقط، ومن ثمَّ ذكر المِلل الثلاث في جملة مستقلة (الذين هادوا والصّابئون والنصارى) معطوفة على الجملة الأولى (إنّ الذين آمنوا)، إشعاراً بان مصير أصحاب هذهِ الملل متوقفٌ على دخولهم في الإسلام، ولن يقبل منهم البقاء على ما كانوا عليه، وعلى هذا يكون معنى (من آمن بالله واليوم الآخر) مَنْ دخل في الإسلام واعتقد ما جاء في كتابه، وذلك لأن أهل هذه المِلل خرجوا عن جادة التوحيد بما حرفوا وبدّلوا من عقائدهم المنزلة، ولا يمكنهم الاهتداء إلى الحق إلا بالدخول إلى الإسلام.
- وأمّا آية الحج فتختص بيوم القيامة، ومن ثمَّ ذكر فيها إلى جانب الطوائف الأربع طائفتان ليستا من ضمن الأديان والملل المنزلة من عند الله، وهما طائفة المجوس، وطائفة الذين أشركوا، ولأن يوم القيامة يوم فصلٍ بين الخلائق جميعاً، ومن ثم ذكر المِلل الست التي ينطوي تحتها جميع الناس ولم يذكر فيها (من آمن بالله واليوم الآخر) لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يكون يوم القيامة ولو حصل فإنه لا يقبل.
- وأما عن سبب مجيء لفظة "الصابئون" بالرفع وجعلها بين (الذين هادوا) وبين (النصارى) لتبين أن "الصابئون" إمّا مبتدأ وخبره محذوف تقديره: وحالهم كحال من آمن بالله واليوم الآخر، وإمّا معطوفة على (الذين آمنوا)، بمعنى أن المؤمنين من الصابئين والمؤمنين من أمة محمد، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولهذا حَسنُ تقديم (الصابئون) وجُعلت بين اليهود والنصارى حتى تتحقق هذه الغاية. ويوصي الباحثان بضرورة أن تكون الدراسات القرآنية سواء أكانت موضوعات أم مفردات، شاملةً لجميع الجوانب اللغوية والتاريخية والسياق القرآني؛ بحيث تظهر مزية الموضوع والمفردة القرآنية، وحكمة ورودها في السياق القرآني، وبالتالي بيان القيمة الإعجازية لها.

المصادر والمراجع

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٩م.

البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ابن الزملكاني. دار الفكر، دمشق، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

تاريخ الفكر العربي، إسماعيل مظهر، دار الغرب، بيروت، ٢٠٠٥م،

تفسير القرآن الحكيم، المنار، محمد رشيد رضا، دا المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

تفسير القرآن العظيم، عماد الدين ابن كثير، دار الخير، بيروت ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

التفسير الكبير، محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان ط٢، ٢٠٠١م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر، طبعة متممة، دار السلام، القاهرة ط١، ١٥٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م،

درة التنزيل، الخطيب الإسكافي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

الرد على المنطقيين، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت ط٣، ١٩٩٩م.

زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

الصابئة المندانيون، الليدى داود، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م.

الصابئة في حاضرهم وماضيهم، عبد الرزاق الحسني، طبعة لبنان، ١٩٧٠م.

فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٢١، ١٤١٤هـ.

الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان ط٢، ٢٠٠١م.

الكنزاربّا، وهو كتاب الصابئة الكبير ومنه نسخة في خزانة المتحف العراقي.

المختصر في أخبار البشر، تأليف أبي الفداء، طبع في القاهرة، ١٣٢٥هـ.

مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢، ١٩٩٩م.

معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢، ١٤٠٤هـ.

معاني القرآن، الفراء، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق ط٣، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي، دار الخير، بيروت ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

الملل والنحل، للشهرستاني، طبعة لبنان، ١٩٧٥م.

مندائي أو الصابئة الأقدمون، عبد الحميد عبادة، طبع في بغداد، ١٩٢٧م.

الوحدانية، د. بركات عبد الفتاح دويدار، دار المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.